

تعقيب على بحث:

أهمية البيئة المدرسية: الإدارة والنظام المدرسي ومرافق الأنشطة  
الثقافية والاجتماعية والرياضية في تحقيق الكفاية اللغوية

الدكتور عبدالكريم الحيارى

كلية الآداب- الجامعة الأردنية

الاثنين ١ ربيع الأول ١٤٣٩هـ- الموافق ٢٠ تشرين الثاني ٢٠١٧م



### الملخص

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على أهمية دور المعلم في المسيرة التعليمية والتربوية، فهو الأساس والعمدة، والبيئة التعليمية بما فيها الإدارة المدرسية وجدت لمساعدته في تأدية عمله على أفضل وجه.

على هذا النحو ينبغي أن يفهم أن كل معلم حتى وإن كان خارج نطاق التخصص؛ هو قدوة لطلابه في الحديث بالعربية السليمة، وتحاشي النكوص إلى العامية.

ويرى الباحث أن معلمي اللغة العربية يصنفون إلى ثلاثة أصناف:

أولها: صنف لا يمتلك الحد الأدنى المقبول من الكفاية اللغوية.

وثانيها: صنف متمكن من اللغة بدرجة معقولة، لكنه بحاجة إلى دورات متعاقبة.

وثالثها: صنف متمكن أكثر مما ينبغي، وهو بحاجة إلى دورات أكثر مما يحتاجه الصنف السابق.

ومفاد القول أن التعليم العام في اللغة العربية وغيرها يهدف إلى أن نصل بالمتعلم إلى الحد الأدنى المقبول من الكفاية اللغوية الذي يؤهله للتواصل فهمًا وإفهامًا مع الآخرين.

## المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وبعد:  
فأشكر لمجمع اللغة العربية الأردني أن أتاح لي هذه الفرصة لأكون مع  
علماء فضلاء وزملاء كرام للحديث في أمر الكفاية اللغوية الذي لا أظن أحداً  
يخالف في مدى أهميته وخطره وفي مدى إلحاحه، وأشكر للمجمع أن حظيت  
بأن أكون في اللجنة المكلفة بإعداد الامتحان في الكفاية اللغوية، وأنه وقف  
موسمه الثقافي الحالي على هذه المسألة وما يتصل بها، وهو بذلك قد فتح لي  
وزملائي في هذه اللجنة باباً واسعاً للإفادة من آراء هذه النخبة من العلماء  
والخبراء وأهل العربية وملاحظاتهم واقتراحاتهم، مما سيكون له ولا ريب أثر  
بالغ في سعينا وقد فرغنا من الامتحان في صورته الأولى - إلى تطويره  
وتهذيبه والارتقاء به.

والشكر كله للمجمع أن أحلّ تعليم اللغة العربية في الصدارة من أولوياته  
واهتماماته، فإن المرء لا يضيف جديداً إذا تحدّث عن أهمية هذه اللغة في الربط  
بين شطأيا وطن عربي بات اسمه الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وعن أهميتها  
في أنها لغة القرآن الكريم والإسلام وتراثه، وليس جديداً القول إن اللغة هي  
الباب الذي لا بد من المرور منه إلى أي لون من ألوان من المعرفة، ولا القول  
إن الكفاية اللغوية التي هي الهدف النهائي لتعليم اللغة في مرحلة التعليم العام  
شرط أساس للنجاح في الحياة الواسعة كذلك، سواء أكان المقصود بذلك التواصل  
مع الآخرين والتفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه المرء أم كان ذلك النجاح في  
مهنة اختارها أو تحقيق غرض بعينه يسعى إليه.

كلّفني المجمع مشكوراً أن أعقب على ورقة الزميل الدكتور زيد القرالة،  
على أنني قد أقترح على المجمع الموقّر استبدال كلمة أخرى كالتعليق مثلاً بكلمة

التعقيب التي تحمل معنى المؤاخذه وتتبع العثرات والسقطات، وتصيّد الأخطاء<sup>(١)</sup>، ومن هنا فقد آثرت أن أتحدث عن بعض المسائل أو بعض الجوانب المتصلة بموضوع الورقتين اللتين تقدّم بهما الزميلان الفاضلان، وهي في رأيي مسائل على قدر كبير من الأهمية في سياق حديثنا عن الكفاية اللغوية وطريقة بنائها عند المتعلمين، وتحتاج أيضاً إلى التنبيه عليها بالنظر إلى ما يلاحظه المرء من مفاهيم وتصورات عند بعض القائمين على تعليم اللغة العربية هي في حاجة إلى المراجعة والتصويب.

تعليم اللغة كما هي الحال في أيّ مادة دراسية أخرى عموده المعلم، وما عداه فإنما هي أمور وُجدت لمساعدته في تأدية عمله على أفضل وجه، أو هكذا ينبغي أن تكون عليه الحال، فالإدارة المدرسية ينبغي أن تعمل على تهيئة الظروف المناسبة للعملية التعليمية، والكتاب المقرر إنما هو ورقة عمل بين يدي المعلم أعدتها جهات لديها من الوقت ما ليس للمعلم الذي يزدحم وقته بالدروس والواجبات، ولديها من الخبرة ما ليس للمعلم الحديث العهد. قلت هكذا ينبغي أن تكون الأمور، أما في واقع الحال، فقد تكون القصة مختلفة، عندما يبئلى المعلم بإدارة متسلّطة لا تعي سبب وجودها أو ليست معنية به ابتداءً، أو ضيقة الأفق تربوياً وإدارياً، وقد يكون الكتاب المقرر سقيماً قاصراً، والمعلم ملزم أن يتقيد به، ويؤخذ إذا انحرف عنه أو تصرف فيه.

---

(١) انظر مادة ع ق ب في المعاجم، جاء في أساس البلاغة مثلاً: "لم أجد عن قولك متعقباً أي متفحصاً، يعني أنه من السداد والصحة بحيث لا يحتاج إلى تعقب"، وفي القاموس المحيط: "تعقبه أخذه بذنب كان منه، وعن الخبر شكّ فيه... واستعقبه وتعقبه طلب عورته أو عثرته"، وفي المعجم الوسيط: "عقب على فلان ندّد عليه وبيّن عيوبه وأغلاطه، وعقب القاضي على حكم سلفه حكم بغيره".

قلت إن المعلم هو الأساس والعمدة، فلا خير في منهاج أو كتاب مهما كان متقناً إذا لم يقيم على تدريسه معلم كفء، والبيئة التعليمية بمعناها الواسع من إدارة ومرافق لا جدوى منها إذا لم تكن في خدمة معلم قادر على الاستفادة منها. وعندما نتحدث عن تعليم اللغة على وجه التحديد فإن هذه البيئة تتسع اتساعاً فلا يكاد يحدها حد. صحيح أن وسائل الإعلام والبيت وغير ذلك لها أثر قد يقوى وقد يضعف في تعليم المواد الأخرى، ولكن ذلك لا يقارن بما لها من تأثير أولاً، وقوة هذا التأثير ثانياً فيما يتصل باللغة. الكفاية اللغوية هي حصيلة ثقافة المرء وكل ما مرّ به من خبرات وتجارب، وهكذا يجيد الكاتب الذي أصاب حظاً من الثقافة وافرأ، ومن هنا صار الإنسان الواسع التجارب متحدثاً بارعاً تصغي إليه الأسماع ويستأثر بالحديث في المجالس، وأصبح المثقف الخبير قارئاً ممتازاً بمعنى القراءة الذي يتجاوز نطق الكلمات وتعرف صورها المكتوبة إلى الفهم والتحليل والتقييم وقراءة ما بين السطور وما إلى ذلك. التعبير والتفكير متلازمان، فإذا أردت التعبير فلا بد من وجود ما تعبّر عنه، ولا تستطيع أن تقول شيئاً إذا لم يكن لديك ما تقوله. وإذا وجد المعنى فإنه يسعى إلى اللفظ الذي يؤديه، كما أشار إلى ذلك عبدالقاهر الجرجاني.

على هذا النحو ينبغي أن يفهم ما نرده دائماً من أن كل معلم هو معلم للغة العربية. كل معلم يشارك في تنمية جانب من جوانب الثقافة لدى الطالب، ليس في مجال الأفكار وحدها، بل في زيادة ثروته اللغوية من المفردات والتراكيب التي يستعين بها في إنشاء ما ينشئ أو فهم ما يقرأ. ولا أظن أن من المبالغة القول إن معلم اللغة الأجنبية لديه ما يقدمه في هذا الشأن، فضلاً عما يؤدي إليه الاطلاع على الآداب الأجنبية من إغناء ثقافة الطالب واتساع آفاقه، فإن العربية المعاصرة تزدهم بمفردات ومصطلحات وتراكيب ومجازات وكنایات مترجمة

عن اللغات الأجنبية، كالشفافية والعصا والجزرة والحرس القديم وغير ذلك من عبارات تخللت في أثناء لغتنا المعاصرة، وأصبح الوقوف على معناها ضرورياً لتمام الفهم والإفهام حسب عبارة الجاحظ، أو الكفاية اللغوية فيما نتحدث عنه الآن.

فإذا تجاوزنا المسألة الثقافية -وهي عندي لها خطر فيما نحن فيه- فإن غاية ما ينتظر من معلم المواد الأخرى هو أن يكون قدوة لطلابه في الحديث بالعربية السليمة، وأن يتحاشى من النكوص إلى العامية. ولا أظن أن من الحكمة أن يتجاوز هذا القدر إلى الخوض في أمور لغوية قد لا يحسنها، وليست جزءاً من عمله على أي حال. وبعض المعلمين وواضعي الكتب يفهمون ما يسمى بالتكامل بين المواد الدراسية على هذا النحو المغلوط، وهذا يصدق على نحو أكثر إلحاحاً على أولياء الأمور، مع أن ثمة من يعول على التعاون بين البيت والمدرسة ويدعو إليه.

حتى الآن لم نتحدث عن معلم اللغة العربية نفسه، ثمة أنواع أو أصناف ثلاثة من معلمي اللغة العربية:

- صنف ليس لديهم الحد الأدنى المقبول من الكفاية اللغوية، ويبدو أن عددهم ليس بقليل، وهذه مشكلة في غاية الصعوبة، فهؤلاء موجودون لبناء الكفاية اللغوية عند الطلاب وتطويرها، وفاقد الشيء لا يعطيه كما يقال، فكيف يمكن الاعتماد عليهم في بناء تلك الكفاية وهم يفتقرون إليها؟! ولا أظن العلاج سهلاً، هذا إذا كان ممكناً على الإطلاق، فإن هذه الكفاية لا تتأتى للمرء بين يوم وليلة، ولست متفائلاً في أن انتظامهم في دورات أو نحوها يمكن أن يؤدي إلى حلول مرضية. الوقاية خير من العلاج، كما تقول الحكمة المأثورة، والوقاية ههنا إنما هي في أن نتحقق من أن المتقدم لهذا العمل لديه مستوى مرضٍ من الكفاية اللغوية ابتداءً، فلا يعين إلا من اجتاز

امتحان الكفاية، ومن الواضح أنه لا بد من أن تكون علامة النجاح فيه لمن يتقدم للعمل معلماً للغة العربية أعلى من تلك المطلوبة من غيره. وأهم من ذلك أن يبدأ الأمر من الجامعات التي يأتي منها المتقدمون للعمل في التعليم، فينبغي أن يكون القبول في أقسام اللغة العربية مشروطاً بنجاح الطالب في امتحان الكفاية، فالجامعة تطوّر الكفاية اللغوية ولا توجد، الجامعة وُجدت لتخريج باحثين ومتخصصين في اللغة لا لبناء المهارات الأساسية فيها، وإذا أخفقت اثنتا عشرة سنة من التعليم المنهجي المتصل لهذه المهارات في تحقيق الكفاية اللغوية عند الطالب، فمن غير المتوقع أن تفلح مواد كالنقد والبلاغة والأدب الجاهلي وغيرها في استدراك هذا الخلل، وليس من النادر أن تصادف بعضاً من حملة الدرجات العلمية العالية في اللغة يرتكبون من الأخطاء اللغوية ما لا يمكن الاعتذار له.

- والصنف الثاني من المعلمين صنف متمكن من اللغة بدرجة معقولة، وهؤلاء يحتاجون إلى أن يكون لديهم أفق تربوي، وإلى إطلاعهم على أساليب التدريس الفاعلة، ولا بد من عقد دورات للمحدثين منهم، ودورات أخرى إنعاشية كما يقال للقدماء لكي يظل المعلم على صلة مستمرة بمادته من جهة، وبأساليب تدريسها من جهة أخرى، ليكون على بيّنة من أمره عند اختياره طريقة ما أو العدول عنها.

- والصنف الثالث معلم متمكن أكثر مما ينبغي، أعني فوق ما يطيقه الموقف التعليمي. معرفته اللغوية تدفعه دفعا إلى استعراض علمه أمام الطلاب، ويكبر في عين نفسه، وفي عين الطالب وولي أمره، وفي عين المسؤول أيضاً، وربما كانت غيرته على اللغة وحرصه على تخريج جيل يجيدها من الأمور التي تحمله على ذلك، فيخوض -والميدان المفضل عند هؤلاء هو

النحو- في الوجوه الإعرابية والتفصيلات النحوية وألوان الشذوذ والاستثناءات والصيغ المهجورة والافتراضية، فيكون حاله حال الأم التي يحملها فرط الحرص على تغذية ابنها ونموّه إلى أن تؤدي به إلى التخمّة والسمنة وما ينتج عن ذلك من أدواء، فينتهي الأمر بها إلى أن تكون قد أساءت من حيث أرادت الإحسان. هذا الصنف من المعلمين في حاجة إلى دورات أكثر مما يحتاجه الصنف السابق. ومع ذلك يحظى هذا الصنف من المعلمين بإعجاب الجميع، ولا غرابة في ذلك فهذه هي الصورة التي رسخت في الأذهان على امتداد قرون متطاولة، فلا عجب بعد ذلك أن ترى من القائمين على التعليم، تعليم اللغة، أو المهتمين به من يعلنها صريحة أن الضعف في اللغة ناشئ عن أننا هجرنا الكتابات ووضعنا ألفية ابن مالك في المتحف. معنى هذا أن القائمين على كليات التربية يستحقون أن يساقوا إلى هيئة مكافحة الفساد بتهمة إهدار المال العام واستيلاء وظائف وهمية.

نحن في موقف لغوي صعب جداً، قيل منذ مئات السنين إن اللغة للعرب بالسليقة وللمولدين بالتعلم والتكلف. (وقد أسيء فهم المقصود بالسليقة والعرب)، فاللغة العربية التي نتحدث عنها هي لغة متعلمة، ومعنى ذلك أن الخطأ فيها متوقع، وإتقانها ليس أمراً يسيراً، وآية ذلك تواتر المحاضرات والندوات والمؤتمرات التي تتناول مشكلة الضعف اللغوي دون أن تفلح في حلّها. ويقتضي هذا أن تكون أهدافنا واقعية قابلة للتحقيق، وألا نستغرق في طموحات وتمنيات بعيدة المنال أو مستحيلة في المدى المنظور. ما أجمل أن نرى الناس يشتركون ويبيعون ويتبادلون التحيات والنوادر بالعربية الفصيحة المعربة، ولكن هذا لن يحدث -إذا حدث- في حياة أي من الموجودين في هذه القاعة.

والتعليم العام في اللغة وفي غيرها موجه إلى جمهور المتعلمين، وليس الغرض منه تخريج خبراء أو متخصصين، ليس الهدف تخريج مؤرخين مثلاً، فالمقصود أن يعرف المتعلم ما لا بد من معرفته في هذا الباب. وكذلك الأمر في

اللغة، فإن الغرض من تعليمها هو أن نصل بالمتعلم إلى الحد الأدنى المقبول من الكفاية اللغوية الذي يؤهله للتواصل فهماً وإفهماً مع الآخرين. ولكننا نجد الأمر يتجاوز هذا الحد عند المعلمين وواضعي الكتب وفي الامتحانات كذلك. هذا الحد من الكفاية اللغوية لا يكاد يختلف كثيراً عما هو مطلوب من حملة الشهادة الجامعية من غير المتخصصين في اللغة أو من تقتضي طبيعة عملهم مستوى أعلى من الكفاية اللغوية. ومن هنا اختلفت علامة النجاح في امتحان الكفاية باختلاف المتقدمين له.

وأهم مشكلة في تعليم اللغة العربية -فضلاً عما قلته من أنها لغة متعلمة- أن المتعلم لا يستخدمها إلا في نطاق محدود للغاية، والنشاطات التي تناولها الدكتور زيد وسيلة لإيجاد فرص لاستخدام اللغة، وإذا جمعنا بين التعليم القاعدي في غرفة الصف والنشاط الحر خارجها، فإننا نكون بذلك قد جمعنا بين رأيين: رأي الزاهدين في جدوى القواعد (أصحاب الطريقة العرضية كما يسميها بعضهم)، ورأي المتحمسين لهذه القواعد (أصحاب الطريقة القاصدة) وأدنا من كليهما.

وأعود إلى القول إننا في موقف صعب، والخطأ متوقع، ومن الضروري أن نحمل المتعلم على الاقتناع بأنه يستطيع أن يصل إلى الحد المعقول من الكفاية اللغوية، لا أن نعمل على تقييده كما هي حال كثير من طلابنا، وهذا ما يفضي إليه الولع بالأخطاء الشائعة والتفريعات والاستثناءات. لا بد من الفرق بالمتعلم للانتقال به من اللغة التي جاء بها من بيته إلى اللغة الفصيحة، وأن يكون المعلم حصيفاً في معالجة الأخطاء التي يقع فيها الطالب على نحو لا يؤدي إلى تثبيطه. الهدف من تعليم اللغة العربية للناشئة هو تطويع لسان الطالب للحديث باللغة العربية السهلة الميسرة، وهذا يقتضي أن تكون المادة اللغوية نفسها التي تقدم للطلاب سهلة ميسرة، وأن تكون الطرق التي تقدم بها إليه فاعلة مؤثرة، وأن ينأى المعلم عن التفريع والتعنيف والتوبيخ، بل يشجعه على أن ينطلق لسانه بالعربية الفصيحة، مستخدماً الحكمة والملاينة في تصويب ما يقع فيه من أخطاء.